# كيف ننتصر لرسول الله ﷺ؟

لم أستغرب لما صدر عن الصحافة الأوربية من إساءات لمقام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، بل لا أبالغ إذا قلت إن استغرابي وعجبي كان من ردود الأفعال التي صدرت عن المسلمين!.

فقد كشفت عن قدر كبير من السذاجة والغفلة وسوء التقدير، وكأنما القوم كانوا يحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم واليوم يكرهونه. أو أنهم كانوا يقدرون مشاعر المسلمين واليوم يهينونها. وكأن أمة الإسلام نسيت قول ربها سبحانه وتعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (البقرة: ١٠٥)،

وكأنهم لم يقرؤوا في يوم من الأيام قوله سبحانه:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ.. ﴾

(البقرة: ١٠٩)، أو أنهم لم يسمعوا قط قول ربهم سبحانه: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾

(البقرة: ١٢٠).

وإذا كانت الآية الأولى قد أظهرت عمق العداوة التي يكنها أهل الكتاب لهذه الأمة، وكشفت عن خبيئة نفوسهم نحو الإسلام ورسول الإسلام صلى الله عليه وسلم، ونبهتنا إلى ما يضمرونه من حقد، وما تنطوي عليه صدورهم من عداوة وكراهية وبغضاء، فإن الآية الثانية قد بينت العلة وراء هذا الحقد وهذه الكراهية، وفسرت ما يقع منهم من عدوان جهنمي همجي كافر. إن هذا كله من أجل إيماننا بهذا الدين، وسعادتنا بهذا النبي الكريم، فهم يحسدوننا على اصطفاء الله لنا لنكون خلفاءه في أرضه، وأمناءه على خلقه، والمصطفون لوراثة الأرض من بعد أن ائتمنهم على قيادة الأرض فخانوا، واستحفظهم على وحيه فحرفوه وبدلوه، وأرسل إليهم الرسل فقتلوهم وعذبوهم وأظهر لهم المعجزات فجحدوا بها، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم. وأخذ عليهم الميثاق ألا يعبدوا إلا الله فأشركوا به وقالوا على الله قولا عظيما.

وكلما رأوا مظاهر عودة المسلمين لإسلامهم، واعتزازهم بدينهم اشتعلت البغضاء في قلوبهم؛ لأن توحيدنا يذكرهم بشركهم، وإيماننا يذكرهم بكفرهم، وطهرنا يذكرهم بنجسهم وانحلالهم. والذي يزيدهم حقدا وحسدا؛ هو شعورهم بالعجز أمام سقوطهم وانحرافهم، فهم يعلمون أنهم ليسوا على شيء؛ لأنهم لم يقيموا في أنفسهم شيئا من أحكام دينهم، ولا حفظوا شيئا من قداسة كتبهم، وإذا حاولوا العودة فلن يجدوا نصوصا محفوظة، ولا وحيا ثابتا ولا منهاجا قويما.

ولقد أطلع الله سبحانه وتعالى نبيه على هذه الحقيقة بقوله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾، فهل أقام أهل الكتاب شيئا من أحكام التوراة أو الإنجيل، وهم الذين قتلوا الأنبياء وحرفوا الكتب ونقضوا الميثاق وسفكوا الدماء، وتطاولوا

على الله، وقالوا ﴿ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾

وقد حكم الله بكفرهم بقوله: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

لقد يئس هؤلاء المجرمون من الهداية، وأيقنوا بالبوار وسوء القرار، فأخذوا على عاتقهم هدم الإسلام بكل وسيلة، ومن كل طريق. وهذا ما أرشدنا الله سبحانه وتعالى إليه بقوله:

﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ (النساء: ٨٩).

وهم في سبيل تحقيق هذه الأمنية لا يترددون في أن يجندوا الجنود، ويجيشوا الجيوش، ويحشدوا كل ما لديهم من قوة؛ ليصلوا إلى مرادهم. وما نراه اليوم في أفغانستان وفي العراق، وفي فلسطين أوضح شاهد على هذا الحقد الدفين، وما كنا بحاجة إلى إثبات هذه الحقيقة لو أننا وعينا عن ربنا قوله الحكيم:

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ. . . ﴾.

فهل يحتاج المؤمن الصادق بيانا أوفى من هذا البيان؛ حتى يحسن فهم ما يقع الآن من بذاءات ونجاسات طفحت بها ألسنتهم بعد أن ضاقت عن حملها صدورهم؟، وصدق الخالق الحكيم الذي أخبرنا بمشاعرهم تلك بقوله:

﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ (آل عمران: ١١٨).

إن ما حدث في أوروبا من إساءات متعمدة لمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفاجئنا. وسكوتهم عن ذلك ينبغي ألا يخدعنا، فهم يتعاملون مع الإسلام من منطلقات عقائدية وثوابت تاريخية. خلاصتها قوله تعالى:

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾ (التوبة:١٠).

ويبقى على المسلمين أن يحسنوا تقدير الأمور، ووضعها في نصابها، وأن نعرف كيف نرد الصاع صاعين، وكيف نرد هجومهم بهجوم أعنف، وبقوة أشد، فهل ما رأيناه من انفعالات وجدانية، ومسيرات غاضبة، وهتافات نارية، هل هذا هو الرد الأمثل الذي يشفي ويغني مع هؤلاء الحاقدين؟

إن هذا الرد وإن كان عبر عن غضبنا، وأشعرهم باستيائنا، فإنه يظل تفريغا وقتيا لشحنة الغضب، ما تلبث النفوس بعدها أن تهدأ، وما تلبث المشاعر أن تنطفئ والعقول أن تنسى. ثم تعود الحال إلى ما كانت عليه، من فتح أسواقنا لبضائعهم، وفتح عقولنا لأفكارهم ومبادئهم ووسائل إعلامنا لمجونهم ولهوهم. وتهيؤ شبابنا لتقليدهم والشعور بالفخر عند محاكاتهم. ومسارعة نسائنا وبناتنا لتقليد نسائهم وبناتهم، وفتح جامعاتنا لمناهجهم، والثقة المطلقة في نظرياتهم وطرق تربيتهم، وتقديم رموزهم وأدبائهم وقادتهم وعلمائهم ليحلوا في نفوس شبابنا محل علمائنا وأدبائنا، وقادتنا

ورموزنا. ثم نظن بعد هذا كله أننا لم نسئ إلى رسولنا، ولم نطعن في ديننا؟! ولم نخالف قول ربنا عندما حذرنا بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٠٠)

وأعلمنا سبحانه وتعالى أننا غير معذورين في هذه المسارعة إليهم ومحاولة تقليدهم وطاعتهم لأن الله أغنانا عن باطلهم بشريعته، وعن أهوائهم بوحيه وحكمته، وعن ضلالهم بدينه وهدايته، ووصف من يسارعون فيهم بالضعف والجبن والنفاق، بقوله:

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ (المائدة: ٥٢).

إن ما يفعله الغرب اليوم من سفاهات؛ دليل على مدى ما يشعرون به من رعب، وما تمتلئ به قلوبهم من رهبة بسبب ما يرونه من تواتر النجاحات الإسلامية في بلاد العالم الإسلامي، وبدلا من أن ينهض المتقاعسون والمترددون والمنتفعون والمنافقون ليغسلوا عن قلوبهم الجبن، ويزيلوا عن أعينهم الغشاوة، ويعلو سلطان الله في قلوبهم ليصغر سلطان الكفر وأهله، بدلا من أن يفعلوا ذلك تراهم يسارعون ليتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين وليطعنوا بتقاعسهم هذا ظهور المجاهدين العاملين. وهذا الصنف من الأمة هم الذين عناهم الخالق الحكيم بقوله:

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (النساء: ١٣٨ ــ ١٣٩).

إن الرد الحقيقي على سفاهات هؤلاء المجرمين هو أن نشعرهم بالندم على فعلهم هذا. وأعظم موقف يجعلهم يندمون ويحترقون هو أن يروا إقبال الأمة على دينها. واعتزازها بنبيها. وثقتها بمنهجها. وعودتها إلى كتابها. والتخلص من هذا الفصام الفاضح بين عقيدة الأمة وبين واقعها. وأن تتحول وسائل التعليم والإعلام إلى خادم حقيقي لعقيدة الأمة وتراثها. وفي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم زاد لمن أراد الانتصار له، ورد الإساءة والإهانة عنه.

يقول ابن إسحق: حدثني رجل من «أسلم». كان داعية: «أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره، من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومولاةٌ لعبد الله بن جُدعان بن عمرو بن كعب في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه، فعمد إلى نادٍ من قريش عند الكعبة فجلس معهم. فلم يلبس حمزة بن عبد المطلب ﷺ أن أقبل متوشحا قوسه راجعا من صيد له. وكان حمزة صاحب قنص، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على نادٍ من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أشب فتى في قريش وأشد شكيمة. فلما مر بالمولاة. وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته، قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمدا آنفا من أبي الحكم بن هشام: وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم. فاحتمل حمزة الغضبُ، لِما أراد الله به من كرامته. فخرج يسعى ولم يقف على أحد. مُعدًا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ثم قال: أتشتمه وأنا

على دينه أقول ما يقول، فردّ ذلك عليّ إن استطعت. فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل؛ فقال أبو جهل: دعوا أبا عُمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا، وتم حمزة ﷺ على إسلامه»[1].

هكذا يكون الانتصار للمبادئ. فحمزة ﷺ لم يقل لأبي جهل أتسبه وهو ابن أخي، وإنما قال: «أتسبه وأنا على دينه، أقول ما يقول». وهذا الانتصار الذي يريده رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا ما نريده من الأمة اليوم. أن تنتصر لرسول الله؛ لأنه صاحب الرسالة والمبلغ عن ربه والمبعوث رحمة للعالمين، وهو النجاة لأهل الأرض أجمعين.

وهذا ما نفهمه من قول ربنا سبحانه:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (آل عمران: ٣١).

أما ما فعله هؤلاء الحاقدون، وما لم يظهروه مما هو أشد من ذلك وأعظم، فإنني أريد أن أطمئن أمة الإسلام جميعا بأن مثل هؤلاء السفهاء لا يمكن أن ينالوا من قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا. . وكيف ينالون من رسول الله صلى الله عليه وسلم والله سبحانه وتعالى قد تعهد بحفظه وعصمته في حياته بقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (المائدة: ٦٧).

وتعهد برفع قدره، وخلود ذكره في حياته وبعد مماته بقوله سبحانه:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح: ١-٤)

فإذا كان جبار السماوات والأرض – سبحانه- قد تعهد بحمايته ورعايته، فمن يملك من أهل الأرض جميعا أن ينال من قدر رسول الله وحبيبه صلى الله عليه وسلم؟ وإنني لعلى ثقة بأن الذهب الخالص لا تزيده النار إلا لمعانا ورونقا وجمالا.

وصدق الشاعر الحكيم حيث يقول:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت … أتاح لها لسانَ حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت … ما كان يُعرَفِ طِيبُ عَرْفِ العود

لقد عودتنا التجارب والأحداث أن كل عدوان على حرمات الله ومقدساته لابد أن تثمرة ثمرة مباركة طيبة تسعد المسلمين وتغيظ الكافرين، فعندما دخل خنزير اليهود (شارون) إلى ساحة المسجد الأقصى ليدنسه، كان فعله هذا تفجيرا للانتفاضة المباركة التي أثمرت أسود الإسلام في حماس، والذين أدهشوا الدنيا بحسن أدائهم، وروعة جهادهم، حتى مكن الله لهم في الأرض، وهاهم اليوم يُختارون بإجماع أمتهم لحكم فلسطين.

وعندما بغي الصليبي الأكبر على المسلمين في أمريكا بعد الحادي عشر من سبتمبر، كان فعله هذا سببا في دخول

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ – دار القلم ص ٣١١ – ٣١٢.

عشرات الألوف في دين الله أفواجا.

وعندما وقع العدوان الصليبي على أفغانستان والعراق، كان فعلهم هذا سببا في إسقاط طاغية وقيام مقاومة إسلامية صامدة، أرغمت أنف الكفر، وأغرقته في مستنقع لا يعرف منه مخرجا، ولا يجد منه مهربا، واليوم يحاولون الإساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فاهتزت الأرض كلها في زلزال مخيف، أرعب الكفر وأفزعه، ولفت أنظار أهل الأرض جميعا إلى عظمة هذا الرسول الكريم؛ لكي نطمئن إلى قول ربنا سبحانه:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (الصف: ٨)